تاريخ الشيخ ظاهر العُمَر الزيداني

نشره بتعاليق ومقدمة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف

توطئة

من المجاميع التي في خزانتي المخطوطة ثلاث رسائل استنسختها من خزانة (بني فرّاج) في القدس الشريف بواسطة صديقي نسيبهم الاستاذ جرجي افندي الحوري سكسك القدسي في صيف سنة ١٩١٢ لانشرها في مجلتي (الآثار) فطُويت الى الآن فرأيت نشرها على صفحات المشرق ضنًّا بها ان تنالها يد الضياع

(فالرسالة الاولى) اسماء حكام الشام من سنة ١١٣٠هـ الى ١٢٢٣هـ (١٧٠٨-١٨٠٨م) اولهم ناصيف باشا وآخرهم كنج يوسف باشا. وهذه طويتها الآن لأني عندي مقالة مطولة في حكام الشام منذ القديم الى يومنا في كتابي (تاريخ دمشق وعمرانها) المخطوط سانشرها في فرصة ثانية

و(الرسالتان الباقيتان) هما المنشورتان الآن (فاولاهما) قصة ظاهر العمر حاكم عكا وما يتبعها في القرن الثامن عشر للميلاد وهي نقل من اصل مؤلفها. (والثانية) قصتهُ ايضاً مختلفة عن الاولى منقولة عن تاريخ مخطوط لنقولا بن سمان فراج ترجمان قنصل روسية في القدس اذ ذاك وهي في خزانة ولدهِ يعقوب فراج قنصل روسية في القدس قبل الحرب العامة. وفي القصتين اشياء لم يذكرها المؤرخون. وقد علّقتُ عليها حواشي تبيّن ما أُغلق منها. وابقيتها بلفظها العامية احياناً وفيها لهجة مصريّة قليلة تدلّ على ان كاتبها كان في مصر او ان اصله مصري وصدّرها بكلمة هي

من هو ظاهر العُمَر ؟

هو من بني زيدان الذين قدموا من عرب الطائف لقحط بلادهم الحجازية في اول القرن الثاني عشر للهجرة. وكانوا ثلاثة اخوة زيدان وصالح وطلحة فنزلوا بواشيهم في عرّابة البطُوف من بلاد الشاغور في فلسطين فتغلّبوا على اسرة درزية هناك واخذوا منها الزعامة وتخضّروا ونُسبوا الى كبيرهم فقيل لهم (الزيادنة). ونشأ من زيدان عمر والد الشيخ ظاهر واخوته فقيل له (ظاهر العُمَر) بادخال أل على العَلَم كما هي العادة في

بعض البلدان. وقد اشتهرنا بسطوتهم هم وذراريهم الى ان نُكِب ظاهر واولاده فتفرّقوا في بعض انحاء سورية وفلسطين. ومن بقاياهم الآن (بنو الحاج ظاهر) في الناصرة و(بنو البارودي) في دمشق. ومنهم فخري بك الذي ذكرته الصحف في هذه الايام. و(آل صنديد) في صفد. و(آخرون) في جهات اخرى في بعض الولايات

واشهرهم الشيخ ظاهر بن عمر الشهير باسم (ظاهر العمر) الذي حكم بلاد الجليل واتخذ عكا قاعدةً له وتوفي سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٦ م) وامتدّت ولايته وولاية اخوته واولاده ولاسيما علي منهم الى ما وراء تلك المقاطعات فحكموها ثمانين سنة من نحوم بلاد بشارة شمالًا الى اطراف جبال القدس جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً الى جبل عجلون شرقاً. فشيّدوا القلاع في كثير من المدن وبنوا الاسوار ورمّموا بعضها منها قلاع عكا وصفد وطبرية وشفاعمر وتبنه ودير حنا والسلط والناصرة. وبنى ظاهر للافرنج التجار في عكا (خان الافرنج). واطلق للاديان الحرية فاجتمع حوله كثير من المسيحيين كانوا اطباءهُ وكتّابهُ وخدّامهُ وكان رئيسُ كتّابه ومعتمدهُ ابرهيم الصباغ المشهور. واتحد مع كاترينه امبراطورة روسية ضد العثمانيين واستقدم صنّاعاً لعمل المدافع التي نقش عليها اسمهُ ولإعداد الذخائر الحربية والاسلحة فأنشأ دولة اشبه بدولة الامير فخر الدين المعني الذي امتدت سلطته اكثر منه وكانت ولايته هو واسلافه اطول من ولاية الظاهر

ولقد ابلى بحروبه البلاء الحسن واشتدّ العداء بينهُ وبين الحكّام الذين جاوروه فناوأ الامراء الشهابيين حكام لبنان ووادي التيم ومشايخ المتاولة آل علي الصغير. وعقد احياناً محالفات معهم متصرفاً بحسب ما تحكم عليه السياسة. واجار علي بك الكبير حاكم مصر الفارّ من وجه الدولة وناهض احمد باشا الجزّار والي عكا الذي قضى عليه. وسليمانَ باشا العظم والي الشام. ومملوكهُ عثمان باشا الصادق واليها ايضاً. ومحمدَ بك ابا الذهب المصري. وحسنَ باشا قبودان (قبطان) قائد العمارة العثمانية. لذي طلب منه مالًا فاشار عليه ابرهيم الصباغ بعدم اعطائهِ ما طلب. فكان بذلك نهاية حياتيها لان احد المغاربة قتل الشيخ ظاهر عن نحو تسعين سنة وكان من خدّامه. ابرهيم الصباغ اخذه القبطان العثماني معه الى الاستانة وشنقهُ هناك. وقُتل معظم ولاد الشيخ ظاهر على اثر ذلك فسقطت امارتهم التي أقلقت البلاد اكثر من ثلاثة

ارباع القرن. ولقد وقفتُ على رسالة من مجمع انتشار الايمان المقدس في رومية الى السيد ثاودوسيوس الدهان بطريرك الروم الكاثوليك (١ في مجموعة من مخطوطاتي انشرها الآن لمعرفة ما كان لابرهيم الصباغ من المنزلة وهي بنصّها:

الى السيد الكلّي الشرف والاحترام

ان هذا المجمع المقدس قد سمع بحزن عظيم المصائب التي حدثت لمدينة عكاء الشهيرة وايضاً لسلك السيد الكولار (٢ ابرهيم الصبّاغ والخطر الموجود به فجودة مزاياه السادة الكردينالية واستحقاق المذكور وعيشه في المناضلة عن ايماننا المقدس وفي بناء الكنائس يستحقون بلا ريب ليس ان المجمع المقدس فقط بل قداسة سيدنا ايضاً يرحمون كل سعيهم لخلاص المشار اليه. ومن ثمّ لا يصير تقاعد منّا في استعمال كل الوسائط الممكنة في القسطنطينية الى الحصول على الغاية المقصودة مع ان الامل قليل ان نفوز بالمرغوب لوجود ظروف عسرة وخطرة جدًّا. فسيادتكم لا تكفّوا من أن تتقدموا للجلال الالهي في هذا الشأن تضرّعات غير منقطعة. واضع هذه الاسطر متقدماً ذاتي قلبياً في ٣ نيسان سنة ١٧٧٦ الكلي الود لخدمتكم

استفانوس بورجيا كاتم السرّ الكردينال كستي مقدام المجمع

ولقد ذكر بعض الشعراء مواقع الظاهر والمتاولة منهم الشيخ ابرهيم الحاريصي العاملي شاعر آل علي الصغير في جبل عامل واجابهُ عبد الحليم الشويكي النابلسي شاعر الظاهر وجماعة رجّال الظاهر ايضاً. والخوري نقولا الصائغ الذي ارّخ له بعض ابنيته.

ونشأ من سلالة (ظاهر) ولده عثمان الذي استبقاه حسن باشا قبطان وحمله الى الاستانة وأخذ اليها معظم سلاسل اسرته وكانوا اكثر من ٣٠ نفراً. وعثمان عالم شاعر اديب له اشعار وقفتُ على بعضها. ومنهم الشيخ فاضل بن علي الظاهر له منظومات منها (سعادة الدارين) وهي ارجوزة وغيرها جُمعت في ديوان خاص. ومن مشاهير الشعراء في الاستانة يوسف خالص افندي بن احمد بن الشيخ ظاهر. وربما نشأ غيرهم من اولادهم الذين لهم بقية الآن في الاستانة

---

١) هو بيروتي من اسرة الدهان المعروفة ولد سنة ١٦٩٦ وتقدّف على بيروت سنة ١٧٣٦ باسم اثناسيوس وصار بطريركاً سنة ١٧٦١ باسم ثاودوسيوس وتوفي سنة ١٧٧٨

٢) يريد Chevalier وهي رتبة معروفة

ولقد جمعت ما وقفت عليه من منظومات ابناء الظاهر وحفدته وهي رشيقة بليغة ربما نشرتها. وعُني كثير بتواريخ (الزيادنة) منهم عبود الصباغ في (الروض الزاهر في تاريخ ظاهر) . ومخايل بن نقولا الصباغ في تاريخ آخر (منهُ نسخة في خزانة الآباء اليسوعيين في بيروت) . وتمان قساطلي الدمشقي في مجلة الجنان سنة ١٨٧٧ وجرجس افندي يني في مجلة المقتطف . ومجلة الزهرة في مجلديها الرابع والخامس . والاب قسطنطين الباشا في المسرة . والقس اسعد منصور في تاريخ الناصرة . ونوفل نعمة الله نوفل في كشف اللثام . وغيرهم من المؤرخين

الرسالة

١ قصة الشيخ ظاهر العمر حاكم مدينة عكا(١) .

هذا كان اصلهُ من براري المدينة المذكورة وكان من ذوي البيوت المشهورة فاشرق شمس مجده . وكان والي صيدا يرسل مسلمين من طرفهِ الى عكا وصور وبيروت . وكانت براري وجبال بيروت بيد حكامها الامراء الشهابيين . وكان المتقدم عليهم في ذلك الوقت الامير ملحم(٢ . هذا كان الاجل (٣ في نعمة الشيخ ظاهر العمر ومشايخ بني متوال (٤ الآتي ذكرهم . والامير المذكور كان يدفع الميري (٥ المرتبة عليهِ من قبل الدولة الى والي صيدا . وكذلك مدينة صور وبراريها وجبالها كانت بيد المتاولة . والمذكورين يحكمون بلادهم من والي صيدا ويدفعون له الميري . واما جبال وبراري عكا كانت بيد مشايخها . ومن الجملة كان بيت ابو زيدان

---

١) هكذا عُنْونت المقالة بدون اسم واضعها ويظهر من بعض تعابيرها المصرية ان كاتبها اما من القطر المصري او من السوريين او الفلسطينيين الذين كانوا في بلاد مصر وهو مسلم

٢) هو الامير ملحم ابن الامير حيدر اول والٍ من الاسرة الشهابية التي حكمت لبنان تولى فيه من سنة ١٧٣٢ الى ١٧٦١م

٣) هكذا ولعله يريد (الاصل) اي السبب بلغة العامة او هو هنا من القاب الشرفاء

٤) يريد بهم زعماء بلاد بشاره (جبل عامل) وما اليه وهم من بني علي الصغير

٥) يريد المال الاميري فتخفف

ومقدامهم (١ تخلّف في الشيخ ظاهر المقصود ذكرهُ

فالمذكورين بيت ابو زيدان كانوا يضمنون من والي صيدا ويدفعوا لهُ الميري فما زال هذا الحال حتى تنبّل مظهر الشيخ ظاهر العمر فتصادق مع المشايخ المتاولة (٢ وقد تزوج بنساء كثيرات وخلف ثمانية اولاد(٣: صليبي . وعلي . وعثمان . وسعيد . واحمد . وصالح . وسعد الدين . وعباس . ما عدا البنات . فقامت شوكتهُ ونمت عائلتهُ وتكاثرت بنيه (٤ وبني بنيه واقرباهُ حتى صاروا مقدار خمسماية نفر . من كل قرم معتبر . وعمروا في البارود (٥ قلعة طبرية (٦ وقلعة صفد (٧ مع غير اقلاع (٨ حصينة وابتدأوا يتماطون بالفجور ويسطون على عكا وصور ويعطلون الاموال الاميرية . واظهروا القساوة وقطعوا الطرق واستقاموا مدة على هذه الحال . فضجر منهم والي صيدا والتزم انه ضمّن مدينة عكا الى الشيخ ضاهر العمر بميري معلومة سنوية . وضمّن صور الى مشايخ المتاولة . وابتدأ الشيخ ظاهر العمر يبني في مدينة عكا سرايا عظيمة الشان ومشيدة البنيان . وسورًا وابراجاً . ويجمع اليه عساكر وانتشرت اعلامهُ في تلك البقعة . واطاعتهُ مشايخ المتاولة . وما زال يزداد في الظهور الى ان انتشى الحرب فيما بين دولة العثماني (٩ والدولة الروسية . وبقرمتها ضعفت قوة الدولة العثمانية وفي الاقطار الشامية . فزاد هذا الشيخ في الفجور والغرور حتى انهُ استقوى (١٠ على الباشا والي صيدا . وطردهُ منها وتملكها ووضع يدهُ عليها . وارسل لها حاكماً من

---

١) يريد بهِ الشيخ عمر شيخ ديار صعب والد ظاهر

٢) كانت بدء مخالفته للمتاولة في سنة ١٧٨١ م اي بعد عام منها فعُقدت المعاهدة بين ظاهر والشيخ ناصيف النصار في عكا وجدّدت

٣) كان ظاهر يكنى بابي سعيد فنسل سعيدًا اكبر بنيهِ او انه كان البكر بهذا الاسم وتوفي ثم سُمي آخر باسمهِ

٤) العامة تؤنث الفعل مع جمع المذكر السالم ٥) لعلّها (البرور)

٦) وهي في مدينة طبرية التي احتلّها ظاهر سنة ١٧٣٨م

٧) ذكرها الشيخ الربوة في (نخبة الدهر) صفحة ٢١٠ مطولاً . والشيخ ظاهر وعمها بعد ذلك واتخذها متصناً له في حروبه ٨) المشهور قلاع جمع قلعة

٩) تحريف (العثماني) بالتركية اي (العثمانية) ويقول بعض العامة العسلية والعسلي بحسب لفظ التاء (سينًا) بالتركية ١٠) بمعنى تغلّب واستظهر

عنده باش اغات المغاربة (١ . فاستمرّ الشيخ المذكور سبع سنوات يحارب الوزراء ولم يدفع ميري الى الدولة العلية بل انهُ مداوم الحروب ولهُ عدة وقائع وانتصارات على عساكر الترك وعساكر الدروز والعربان. وفي هذه المدة عمل مصادقة وموافقة مع دولة المسكوب. وكان ذلك بشور وتدبير كتخداي (٢ الذي كان متسلم كامل اشغاله وجميع ماله تحت يده واسمه ابرهيم الصباغ (٣ وهو رجل من اهالي عكا. وهذا كان صاحب عقل وتمييز غير انهُ بخيل للغاية محبّ المال. وما يرغب الخير الى احد. ومن زود بخله ما كان لهُ محب ابدًا. لا من اولاد ظاهر وعيلته ولا من اهل البلاد(٤ . ثم ان الشيخ ظاهر المذكور ما زال يزداد في علوّ المقام . واستمرّ حاكمًا في مدينة عكا مقدار اربعين سنة . وطعن في السنّ وما زال الى سنة ١١٨٩ (١٧٧٥م)

ففي اواخر هذه السنة حضر القبودان باشي (٥ حسن باشا بالعمارة لان السلطان عبد الحميد بعد ما عقد الصلح مع المسكوب في سنة ١١٨٧ (٦ تاريخ جلوسه التفت لتنظيم البلاد فوجّه المشار اليهِ وامرهُ يعطي نظام سا (٧ . . . فجال حتى وصل الى مدينة عكا في اواخر سنة ١١٨٩ كما ذكرنا : وذلك من بعد موت محمد بيك ابو الذهب ورجوع عساكر المصريين من عكا لمصر بمدّة قليلة . فحين وصول قبودان باشي المذكور الى مينة حيفا ضاجت المدينة . وبالحال الشيخ ظاهر ارسل احمد آغا الدنكزلي الذي كان متسلمًا في صيدا لعند قبودان باشي لكي يستفهم منه عن سبب حضوره . ورجع بالجواب انهُ طالب مال الميري السبعة سنين المكسورة واستقام خمسة عشر يومًا . وكل يوم احمد آغا المذكور يتوجه الى حيفا الى عند قبودان باشي ويرجع

١) هو احمد آغا الدنكزلي وكان مغربيًا اكتسع اليدين لكنه شجاع حكيم كان يخدم ظاهرًا فوضهُ متسلمًا في صيدا من قبله وكان يعرف اللغة الطليانية كما سيجيء.

٢) الكتخدا فارسية بمعنى الرئيس والقهرمان والقيّم على المال وتصرّفوا بها فقالوا كاخية وكيخية وهو اوّل اتباع الحاكم يساعدهُ في ادارة شؤون ولايته فهو اشبه بالمعاون الآن ويستعمل باوجه اخرى ٣) اصل اسرته من الشوير في لبنان وبقية اسرته الآن في دمشق وبيروت والمهجر ٤) هذا الوصف يخالف ما كتبهُ غير واحد في مديح ابراهيم الصبّاغ

٥) يعني (ريّان) او (القبطان) وهو رئيس المراكب والقيّم عليها

٦) الموافقة لسنة ١٧٧٣ م

٧) كذا في الاصل وقد سقطت كلمات لعلها (سامي لبلاد سورية) ونحو ذلك

لعند ظاهر ولم يكن يصير موافقة . ولا على نوع من الانواع . لكون الشيخ ظاهر لم يكن يمثل ولا يقبل ولا طريقة

ثم قبل حضور قبودان باشي بيومين كان حضر لعكا فرقاطه (١ فرنساوي من طرف دولة فرانسا باوامر اذا كان الشيخ ظاهر يحاصر بعكا ويتحارب مع قبودان باشي . كامل طايفة الفرنساوية الموجودين بها ينزلوا الى الفرقاطة المذكورة ولا يكونوا تحت الحرب . ففي مدة الخمسة عشر يوم المذكورة اقامة قبودان باشي في حيفا قصد قبودان الفرقاطة المذكورة انهُ يكون وسيط في انتظام المادة ما بين قبودان باشي وظاهر العمر : فجمع طايفة الفرنساوية الذين بعكا وسار لعند الشيخ ظاهر وتكلّم معهُ وافهمهُ : اولًا ان المساواة بالمعروف احسن واوفق لهُ . وثانياً القبودان باشي حضر بهذه العمارة من الاستانة العليا التي تكلفت مبلغ مال . فما يصحّ انهُ يقوم ويرجع فارغ . وماذا يعطي جواب الى الدولة العليا . فاذًا الرأي عندي ان كان تقبل وتريد ان اكون واسطة بتقدير مخلّص (٢ المادّة مع المشار اليه بخسماية كيس . وهذه تنسحب لك من مال ميري السبع سنين المكسورة . وعلى هذه الطريقة تكون صنتَ بلادك وتثبّيت (٣ حافظ مقامك . واظهرت طاعتك الى الدولة ولا يجري عليك خلاف . وان قبلت هذا الرأي ودفعت الخسماية كيس انا اكون ضمين بان يجيك وصول من الدولة العليا من اصل مال الميري المكسور . وربما لم تقبل ضمانتي لكوني لستُ مقيماً هنا . فهوذا طايفة الفرنساوية تضمن على ضمانتي لكوني وان ما جاءك الوصول كما ذكرنا والّا تقبض المبلغ المذكور من التجار المذكورين . فالشيخ ظاهر لم يقبل وصار يتعلّل ان ما عندهُ مال ليدفع . ولما صار بينهم معالجة في الكلام ولم يصير افادة فقال لهُ الكومندان : فاذًا يعمل معك حرب . فاجاب : وانا حاضر لذلك وعندي بارود وكلل كفاية . فقال لهُ : من حيث الامر كذلك معي تجار الفرنساوية ملزوم آخذهم عندي للمركب . فابى ظاهر ولم يسمح . وقال : هذا غير ممكن . فللحين انعمَ الكومندان

---

١) الفرقاطة ايطاليتها (Fregata) بمعنى بارجة وتستعملها الامة كثيرًا لشيوع اللغة الايطالية بيننا قبل الفرنسية وغيرها من لغات اوربة

٢) تستعمل العامة الباء في اول المضارع والمعنى (أقدر أخلّص)

٣) تم عند العامة بمعنى (بقي) . وبعضهم يقول (ضمّ) بالابدال

منهُ غمًّا شديدًا . ونزل من عنده بحماقة مع كامل من معهُ . والا وصل الى باب خان الفرنساوية منعهم الدخول اليهِ . وقصد يأخذهم غصباً الى المركب حسب اوامر سلطانهم . وصاروا يعتذروا لهُ ويأخذوا بخاطره لكي يعطيهم مهلة لوقت ان ينزلوا اوزاقهم وبضايعهم المركب وبعدهُ يلزم يسافروا فاذلك سمح لهم . وبعدهُ اخذوا الاذن من ابراهيم بتنزيل اوزاقهم المركب . وصار ذلك . وبعدهُ سافروا برًّا بالسرقة . ولم يبقى منهم سوى ثلاثة من التجار . اثنين في الخان الكبير وواحد في الخان الصغير . واهل المدينة من خوفهم من الحصار والحرب عزلوا بيوتهم وبضايعهم وادخلوها الى خانات الافرنج لاجل الحماية والصيانة وسافروا من البلد الى القرايا الخارجة عن المدينة . ولم يبقى سوى الذين ليس لهم مقدرة على السفر

(فلنرجع لما كنَّا في صددهِ) فبعدما كومندان الفرنساوي قابل ضاهر ولم يصير افادة ثاني يوم طلع احمد آغا الدنكزلي لعند قبودان باشي وتكلم معهُ ورجع لعند ضاهر وكان واقف امامهُ ابرهيم الصباغ كتخداه . فقال لهُ : يا شيخ ان المادة لم تنصرف الَّا بخمسمائة كيس . والاوفق دفعها . فاجابهُ ضاهر : ومن اين نحضر هذا المبلغ . فقال لهُ الآغا : ابرهيم يدفعها . فقال الشيخ : ان ابرهيم ما عندهُ وله عندنا طول مبلغ مال . وكان ضاهر رجل سادج لا يعرف شيء . ومهما كان يقول لهُ ابرهيم يصدقه وهو كان دايمًا يفهمهُ ان صار لهُ عندهُ طول اكثر من سبعماية كيس . وضاهر كان يصدق ذلك . وكان الدنكزلي رجل خادم نصوحاً وصعبان عليهِ هذه الامور . وخايف لئلا تجري بخلاف . فقال للشيخ : سلمني ابراهيم باش وبعد ساعتين انا اطلع منهُ اكثر من ذلك . فلما سمع ابرهيم هذا الكلام تراقع على الشيخ وترجاهُ ان لا يسمح بذلك فعفى عنهُ . فعند ذلك غضب احمد آغا فضمر على الخيانة (١ وتسليم المدينة الى قبودان باشي وتوجه الى محله . وجمع كم (٢ بلوكباشي لهُ وافهمهم « ان ضاهر قصد مخادعة مراكب السلطان ونحن اسلام فلا يمكننا ذلك . فاذًا روحوا اطلبوا جوامككم (٣ وسافروا » . فبالحال طلعوا لعند ضاهر واخذوا منه جوامكهم وباس آغاتهم (٤ ساروا

١) ضمر على الشيء نواهُ وقصدهُ ٢) بمعنى بعض
٣) الجوامك جمع جامكية بمعنى الراتب والاجرة وهي اعجمية ٤) اي (اغاهم)

لعند قبودان باشي : وثاني يوم الآغا المذكور توجه لعند المشار اليه . واتفق معهُ بالعبارة (١ ويحضر لمينة عكا ويحاربها وهو يسامهُ اياها . ورجع الدنكزلي استقام (٢ بالمدينة عند الشيخ ليتمم مرغوبهُ . وثاني يوم حضرت العبارة بتمامها وربطت قدام البلد بكل راحة من دون ادنى معارضة . وارسل قبودان باشي واحد جوخدار (٣ من طرفه بتحرير الى ظاهر يذكر فيه هكذا :

« من بعد السلام طلبت اعلمك عن سبب حضوري والآن اعرفك كل شي ايضاحاً وهو حضوري باوامر من الدولة العلية صاغاً. رب البرية لكي استلم منك ميري البلاد سنة المكسورة عندك . وبعده آخذ راسك واستلم البلاد . هذا هو سبب حضوري . ولكن لكوني اعرف جيداً زود (٤ حلم ورأفة الدولة العليا وشفقتها على رعاياها سيما على من يكون مطيع الى اوامرها فلذلك ان شئت تدفع لي مال الميري المكسور عندك . وتسلمني مدينة عكا . وانت تخرج الى مواضعك القديمة . وانا من رجوعي الى الاستانة العليا اعرض عن طاعتك وقبولك لاوامر السلطانية ويخرج لك فرمان بالعفو . فاما (٥ عن كلما سلف منك وترجع الى مدينتك كما كنت وبهذه الطريقة تكون صنت مالك وعرضك ورجالك وحفظ مقامك . ماذا (٦ والاَّ انا حاضر للمحاربة »

فلما طلع الجوقدار لعند ظاهر وقرأ هذا الخطاب زعل واحتد (٧ ونفر في الجوقدار وقال لهُ : روح قول الى باشتك (٨ من داوقت (٩ الى ساعة ان ما قام من الينا والاَّ بغرق كامل المراكب . فخرج الجوقدار وتوجه لعند سيده واعلمه الجواب وكان عند الشيخ ظاهر ثلاثة طوبجية (١٠ افرنج بتوع (١١ محمد بيك ابو الذهب معلمين للغاية . دول (١٢ كان حاشهم (١٣ بعد ما رجع لعكا من بعد موت ابو الذهب فكان قبل بيومين اخرجهم من السجن وطيَّب بخاطرهم . ولما توجه الجوقدار من

---

١) لعلها (ان يركب بالعبارة) الخ ٢) بمعنى (قام)

٣) الجوخدار والجوقدار من يحفظ ثياب السلطان او قفطانه فيقدمه له عند الحاجة وهو وظيفة خاصة ٤) بمعنى (زيادة او كثرة)

٥) كلمة (فاما) هنا زائدة . او حذف شيء بعدها او تكون تصحيف لفظة (قائماً)

٦) ماذا بمعنى : ماذا تجيب ؟ ٧) بمعنى حمق وتكدَّر

٨) اي الى الباشا الذي تخدمه ٩) كلمة مصرية بمعنى (هذا الوقت)

١٠) الطوبجية جمع طوبجي وهي نسبة تركية لطوب التركية بمعنى المدفع فيكون معناها المدفعيين

١١) كلمة مصرية بمعنى (من رجال او من خاصة)

١٢) دُول مصرية بمعنى (هؤلاء) ١٣) حاشهم اي اسكوم

عنده سلم لكل واحد منهم برج وامرهم ان صار الحرب من المراكب يضربوا عليهم مدافع ويغرقوهم

ثم بعد ما توجه الجوتدار بساعة وكان الوقت بعد الظهر بساعتين ابتدأ القبودان باشي بالحرب وصار يرمي كلل على المدينة بقساوة زايدة وكان شي مهول جدًّا. واستقام بالحرب تلك ثلاثة ساعات. واما الطوبجية الذين في المدينة يومها ضربوا فقط ثلاثين مدفع من غير زيادة. وجميعهم كانوا طيارين (١ . فقط مدفعين اللذين ضربوهم بنشان (٢ الواحد حكم في مقدم مركب قبودان باشي والثاني في مؤخر مركب الريالا (٣ وصار عوار (٤ للمراكب. فساعتها قبودان باشي رفع الحرب لاجل انه يصلح المراكب. واما ظاهر لما بلغه ذلك انعم على الطوبجية بانعام دني (٥ للغاية. وهو لكل واحد عشرة ذهب محبوب (٦ . فلما بلغ ذلك احمد آغا الدنكزلي حضر لعند الطوبجية وتكلم معهم بالطلياني بكل حماقة واقيم ان لا . . . (٧ يضربوا مدافع ابدًا بل انهم يقدموا اعذار. ثاني يوم عند طلوع الشمس ابتدأ قبودان باشي يضرب المدافع واستقام اربعة ساعات ونصف. وبهذه المدة عدة الكلل التي انضربت من المراكب على مدينة عكا سبعة آلاف وخمسين كلّة. ولم يصير منها ضرر كبير بل في بعض محلات هدّد (٨ قليل والذي قتل في المدينة من المدافع المذكورة رجلين فقط

ثم بوقته طلع احمد آغا الدنكزلي لعند الشيخ ظاهر العمر. وقال له: يا شيخ قم اطلع من البلد وفز بنفسك. فاجابه: لا بدّ من ذلك وما بقي فائدة؟ قال له: نعم وهذا الاحسن لك. فبالحال ظاهر العمر ارسل الى جماعته لكي يخرجوا من المدينة. واما ظاهر اخرج كامل حريمه وابقى سرّية واحدة التي تعوّقت [illegible]. وظاهر ما اراد يفوتها خوفًا على عرضه بل تعوّق لكي يخرجها معه. وبعد ما كانوا قد اخرجوا

---

١) معنى طيارين هنا (غير مصيبين) ٢) اي باحكام وضبط

٣) نوع من المراكب التركية البحرية ٤) اي تعطيل ٥) قليل

٦) ذهب محبوب من مسكوكات الاسكانة على وجه الظفراء وهي الشاهي (ضرب في اسلامبول) والبندقي مثله وقيمة كل منها بين غرشين وخمسة غروش ومنه ما سلك في مصر

٧) بياض في الاصل ولعله حذف كلمة (يبودوا) ونحوها ٨) بمعنى الهدّ والهدم

٩) لما هنا بمعنى (حتى) عند العامة

كامل جماعته فخرج هو والسرّية معهُ مع نفرين من اقربائهِ . ولما صار خارج المدينة في محلّ يسمّى الزقايق فهناك تقنطر (١ ووقع على الارض والاثنين الذين كانوا معهُ هربوا وتركوهُ . ومن كونهِ كان طالع من المدينة مُهان وبغاية الذل وكان رجل كبير وطعن في السنّ . فلم يصير لهُ همة الى النهوض حالًا . وحضر عليهِ (٢ كام واحد (٣ من المغاربة الذين كانوا قد خرجوا من عنده وتقدّم عليهِ (٤ واحد بلوكباشي وقطع راسهُ وسلّحهُ ثيابه وترك جثته على الارض عريان كما خُلق . واخذ السرّية ودخل الى المدينة . ثم بحال خروج ظاهر من المدينة دخلت عساكر المغاربة المذكورين قبله . ومن كونهم كانوا في المدينة ونظروا ان كامل ارزاق الرعايا دخلت الى خان الافرنج فحضروا جميعهم على الخان وقصدهم نهبه . واما الافرنج فقفلوا الباب وصارت المغاربة تكسر في الباب وكانت ساعة مهولة جدًّا . وكل من كان داخل الخان قطع الاياس (٥ من الحياة

واما ما كان من قبودان باشي بعدما خرج ظاهر العمر اعطاه الاشارة احمد آغا الدفتكزلي الذي كانوا متفقين عليها . وبالحال نزل بعساكره وقبابطين (٦ المراكب وحضروا للمدينة وحينما خرج من الميناء طرد المغاربة عن خان الافرنج . وارسل اعطى الامان الى الافرنج ومن عندهم . ولم يجري ضرر على الخان . وتوجه الى السرايا وساعتها انفردت المغاربة وعساكر الترك على المدينة ونهبوها . واستقام ذلك مقدار ساعتين بعد العصر نزل منادي من طرف القبودان باشي ينادي بالامن وعدم المعارضة وراقت المدينة . واما المدينة كانت خالية من السكان لان الاكثر كانوا قد هربوا الى البرّ والذين بقوا بوقت الحرب دخلوا احتموا في خان الافرنج ثم بعد ما دخل قبودان باشي الى السرايا وارتاح (٧ طلع لعنده البلوكباشي المغربي وقدّم لبين يديهِ رأس ظاهر العمر وخا (٨ . . . واما السرّية بقيت عند المغربي وفي تلك الليلة القبودان

---

١) اي تقطّر وسقط من الفرس ٢) اي اختلف اليهِ وتردّد عليهِ
٣) كام واحد عند العامة بمعنى بعض ٤) بمعنى وتقدم اليهِ
٥) بمعنى (يئس) وقطع الرجاء ٦) جمع قبطان بلغة العامة بمعنى رئيس المركب
٧) كثيرًا ما تستعمل العامة ارتاح بمعنى استراح
٨) كذا في الاصل ولعلها (وخادمه)

باشي ارسل راس ظاهر العمر في غلياطه (١ مخصوصة الى القسطنطينيّة . وثاني يوم احمد آغا الدنكزلي طلب الاذن من المشار اليهِ في دفن جثة ظاهر وسمح لهُ بذلك ودفنهُ بالمحلّ الذي قُتل فيه

واما كومندان الفرقاطة الافرنساوي نبّه على التجار الافرنساوية وقال لهم : حسب اوامر السلطان كل من عندهُ وداعة الى ابرهيم الصبّاغ او الى كل من يلوذ بهِ وفي ظاهر العمر ملزومين تشهروهُ وتقدموهُ الى قبودان باشي والذي يخبي شي . وفيما بعد يظهر ذنبه في رقبته (٢ لانهُ يخرج من رعاية فرنسا ويبقى المشار اليهِ له تسلط عليهِ ويفعل فيهِ مرادهُ . وثاني يوم طلعت تجار الافرنساوية مع القومندان سلموا على القبودان باشي واكرمهم . ثم انهم اشهروا لهُ الودائع التي عندهم الى ابرهيم صباغ وبالحال ارسل لعندهم الى الخان كتخداي وقبوجي باشي . واستلموا كامل المال الذي موضوع عندهم الى ابرهيم صباغ . وكان جميعه ذهب ستة وثلاثون الف كيس وذلك ما عدا الجواهر والتحف المعتبرة الذي لم تفهم مقدارها . وظبط (٣ ايضاً كل حواصل المذكور وكانت مشحونة من اصناف البضائع . فانظروا لهذا المسكين الذي لم (٤٠٠٠ نفسهُ عن خسارة كيس لحفظ مالهِ وحياتهِ وحياة سيدهِ . ومن زيادة طمعهِ وحبه بالمال خسر كل شي وقتل سيده وخرب بلاده . واستقام كتخداي القبودان باشي جملة ايام مقيم في خان الافرنج . وبضبط ما هو موجود الى ابرهيم الصباغ ومن يلوذ بهِ والى اقرباء ظاهر العمر وجماعته . وانظبط مبلغ كبير جدًّا . واما ماكان من ابرهيم الصباغ عندما خرج ظاهر من عكا هو ايضاً خرج ومعهُ خدام (٥ واحد من اتباعه وكان راكباً فرساً عيّانة (٦ فوصل الى قرية بعيدة عن عكا مسافة ساعة تسمى المزرعة فنزل خارج القرية وقال الى تابعه : ادخل لعند شيخ الضيعة وجيب لي فرس طيبة . فقال له تابعه : «ما عندنا وقت لذلك والاوفق ابقى ساير ولا نبعد ندبر فرس غير هذه . فما قبل . والتزم الخادم يدخل الى الضيعة . وبقي هو وحده في الخارج وصادفت الامور لاجل انفاد (٧ المقدور

---

١) الغلياطة طايانيّة اي مركب ٢) اي يقطع عنقه لاجل ذنبهِ .
٣) لفظ الضاد ظاء لهجة تركية ٤) كذا في الاصل وقد سقط قوله (لم تسمح نفسه)
٥) الخدّام عند العامة بمعنى الخادم المفرد ٦) مريضة ٧) انفاذ

وفي تلك الساعة اتاهُ اثنان من مشايخ الجبليَّة الذين هم مشايخ طرشيحا (١ . وكانت عداوة عظيمة فيما بين المذكورين وبين ظاهر العمر والسبب من المذكورين . فصار يتدخل عليهم (٢ ويترجاهم فلم يقبلوا رجاه . وثاني يوم قيدوهُ وارسلوهُ الى عكا الى قبودان باشي فبالحال امر عليه بالسجن . وفي تلك الليلة عذَّبهُ عذاباً شديداً لاجل ان يقرّرهُ على المال الذي عندهُ . وما كان يستقر (٣ بشيء ابداً . ولا كان عارف ان المودوع عند الافرنج انشهر الى المشار اليهِ . واما اخيراً من شدة العذاب استقر بألف كيس . وثاني يوم طلعوا ثانية الافرنج لعند القبودان باشي . فقال لهم : ان ابرهيم الصباغ حضر وهو في الحبس . والزمهم بأن يسلموا عليه فدخلوا لعنده . والمذكور سألهم عن المودوع عندهم فأجابوهُ : انَّنا سلمنا كل شيء لك عندنا . فانغمَّ غمّ شديد وتلاوم عليهم (٤

والقبودان باشي ارسل واحضر احمد بيك الجزار وعملهُ باشا بطوخين (٥ وسلَّمهُ عكا وصيدا وما يليها . وصار اسمهُ احمد باشا الجزار والي صيدا . وهذا لهُ قصة عجيبة . وامَّا حسن باشا سافر من عكا الى القسطنطينية بكامل العمارة واخذ معهُ ابرهيم صباغ مربوطاً بالحديد . وايضاً اخذ معهُ احمد آغا الدنكزلي . وهو مسافر شنق المذكور الدنكزلي في صاري المركب لسبب انهُ خان سيدهُ فما اركن لهُ

وبقي احمد باشا الجزار بمدينة عكا واولاد ظاهر العمر في الخارج حكام كعادتهم (٦ . وانما الجزار قصد انهُ يتحايل عليهم ويظفر بهم فصار يخادعهم ويخاتلهم وأشهر لهم محبة زائدة . واقام الشيخ عثمان الظاهر شيخ المشايخ . واطلق لهم السبيل بأن يروحوا ويجوا الى عكا والى كامل اقباعهم ايضاً . ويقضوا كامل اغراضهم . وكان كذلك . غير انهُ لم يتلك انهُ يجمعهم سوية بعكا لكي يظفر بهم وينال مقصوده

---

١) قرية اشتهر منها الشاعر الشيخ صالح الطرشيحي ٢) اي يتفرع اليهم ٣) يقرّ
٤) اي لؤمهم ٥) الطوخ ذنَب حصان ابيض يُعقد على رمح في اعلاه كرة مذهبة من نحاس وهي رتبة تختلف درجاتها

٦) كان كبيرهم علي في صفد . وعثمان في شفاعمر . ورسيد في الناصرة ومرج ابن عامر . وصليبي في طبرية . واحمد في تبنه وعجلون . وكان سعد عمّهم في دير حنا . وشقيقهم الاصغر مع والدتهم

وفي مبادي ثاني سنة التي هي سنة ١١٩٠ (١ رجع ثانية حسن باشا بالعمارة من القسطنطينية لعكا. وحضر ايضاً محمد باشا العظم الى الشام بعسكره. وابرهيم باشا والي القدس الشريف بعسكره. ونصبوا اوردیهم (٢ خارج مدينة عكا وكذلك طلع معهم احمد باشا الجزار بعساكره وساروا جميعاً مع قبودان باشي قاصدين ليطشوا في اولاد ظاهر العمر. فارسلوا لهم مكاتيب بكل وداد ورقة وعرفوهم: ان كانوا طايعين الى اوامر السلطان فليحضروا جميعهم ويقدموا طاعتهم امام قبودان باشي. وينالوا منه الامن والامان ويتسربلوا بالخلاع الفاخرة ويرجعوا الى اماكنهم غانمين الراحة التامة. فلما وصلت الراسيل (٣ تجمعوا كلهم سوية. ما عدا اخيهم الشيخ علي الظاهر لم يقبل ان يكون معهم وعملوا الشور مع بعضهم. ولاجل انفاذ المقدور تحسن عندهم (٤ ان يحضروا امند قبودان باشي ويقدموا طاعتهم ويحصلون على راحتهم وساروا جميعهم وهم: عثمان واحمد وسعيد وسعد الدين ومعهم اولاد علي الظاهر حسن وحسين. وحضروا الى الاوردي لعند باشا القبودان باشي واستقبلهم بكل اكرام وامرهم بالجلوس وبعد ما شربوا القهوة أمر ان يقبضوا عليهم. وكان ذلك والمحاشوا كلهم جملة واحضروهم لعكا وارسلهم الى مركبه. وقامت الباشاوات ورجعت الى محلاتهم والقبودان باشي قام بالعمارة من عكا وتوجه الى بيروت فحين بلغ حكامها قدومهُ فرّوا هاربين الى الجبل وحينئذ كان حاكمها الامير يوسف الشهابي فحين وصل حسن باشا كتب الى الامير يوسف فرماناً في الامان وانه يدفع الباقي عليه من الميري. وحين وصل الفرمان فبادر الامير يوسف وكتب عرضحال واعرض ما تمّ لهُ مع ظاهر العمر من الحروب ومساعدته الى عسكر الشام وعدم خروجه عن طاعة الدولة ثم اعرض ما تمّ لهُ مع الجزار وان الموما اليه لا بدّ ان يطلب شرّنا مع اننا نحن طايعين. وارسل لهُ سمايا كيس حرير فقبلها المشار اليه. وارسل الى الامير يوسف تقرير الجبل وبيروت وعاهدهُ ان الجزار ما لهُ معارضة معهُ ونهض من بيروت

وحين بلغ الجزار ان حسن باشا قبل طاعة الامير يوسف وقررهُ على حكم

---

١) الموافقة لسنة ١٧٧٦م ٢) اوردي تركية بمعنى الجيش ويقال العرضي
٣) جمع مرسال عند العامة بمعنى الرسول ٤) ارتأوا او ارادوا

الجبل وبيروت فركب في احد الغلايط (١ وحضر من عكا لبيروت وارسل على البر مصطفى كتخداي «قره ملأ» ومعه الف وخمماية عسكري وكان القصد في حضوره لبيروت لسبب الفتنة التي كانت بينه وبين الامير يوسف. فحين بلغ الامير يوسف ذلك حالًا ارسل خبّر الى حسن باشا فرجع المشار اليه بالعمارة لانهُ كان قريباً وطلع الى الديوان فنظر الجزّار في الديوان. فطردهُ وقال لهُ: انا حرّرت تقرير الامير يوسف على بيروت والجبل فما لك معارضة معه. ورجع حسن باشا الى القسطنطينية والجزار الى عكا. وهو مسافر شنق احد اولاد ظاهر العمر في صاري المركب وهو الذي اسمهُ احمد وسبب شنقهِ لانهُ كان يطعن جهارًا في حسن باشا. واخذ باقي اخوته مايسورين (٢ الى القسطنطينية وحصلوا على انعامات من الدولة العلية

واما ابرهيم الصباغ كان وُضع بالسجن في القسطنطينيّة واستقام مدة طويلة. ففي يوم من الايام سمع من السجان ان الوزير صاحب الختام (٣ لهُ ولد وحيد متشوش ولم يكن احد من الحكما يعرف لهُ علاج والوزير من اجلهِ في غمّ شديد. وكان ابرهيم الصباغ ماهرًا في الطب فتكلم مع السجّان ان يعرض الى الوزير ويستأذن لهُ ان يشوف (٤ ولده امل الله يجود بشفاء عن يدهِ. وكان كذلك. ولمّا مثل بين يدي الوزير اوعدهُ ان أشفي (٥ ولده ينعم عليهِ باطلاقهِ من السجن. ثم انهُ عالجهُ وبعد كم يوم اجاد المولى على الولد بالشفا الكامل وبهذه الواسطة انطلق ابرهيم الصباغ من السجن وصار يدور في القسطنطينيّة من غير معارضة فلاجل ذلك تحسّب منهُ (٦ قبودان باشي لئلّا يعرض للدولة العلية ويقيم عليهِ دعاوي. فوضع عليهِ رواقيب (٧ في البحر. فاتفق نهار عيد الكبير (٨ عند النصارى نزل ابرهيم الصباغ في قارب بقصد يعدّي (٩ من محل الى محل. فانخاش واخذوهُ الى مركب قبودان باشي وبالحال شنقه في الصاري. وهذه كانت نهاية حياته

واما ما كان من الجزّار ابتدا يحصّن مدينة عكا. واما صور بقيت بيد مشايخ

---

١) جمع غلياطه بمعنى المراكب ٢) اي مأسورين ٣) لعلها صاحب الختم اي (مهردار)
٤) يشوف اي يرى ٥) تستعمل الامة أشفى بمعنى شفى وهمزتها للسلب
٦) اي تحذّر منه ٧) جمع راقوب بمعنى مراقب ورقيب
٨) اي عيد الفصح ٩) يمرّ

المناولة . وبقي من اولاد ظاهر الشيخ علي بمرده وكانت ترتعش منهُ تلك الاراضي ولا كان يـأوي بلدًا بل دائمـاً ناصب اورديـهِ في البراري وكل مـدَّة في محلّ . وكان يومئـذ واليـاً على دمشق الشام محمـد باشا العظم . فهـذا حضر لـهُ من الدولة اوامر وكتبوا لهُ انهُ بلغنا ان علي الظاهر العامي لم يزل مقيماً في ارضـك . وهذا شيء ضد رضانا فبحال وصول الاوامر اليك ترسل راس علي الظـاهر او آن تأخذ (١ راسك . فابتدأ محمد باشا يدبّر انه طريقة لقتل علي الظاهر . فاستدعى احد رؤساء عساكرهِ وهو محمد آغا دالي باش (٢ وقال لهُ : «اجمع رجالك واحضر لعنـدي وقت الديون (٣ واطلب مني علايفك (٤ . وأظهِرْ الحماقة في المحضر واذا شتمتُك اخرج من امامي بصورة مغضبة واركب مع عسكرك . واخرج خارج المدينة لكي يتضح الامر للعال والدون ويبلغ ذلك الى علي الظاهر واجعل لك طريقة للاجتماع عليهِ وتدرَّب غاية التدرُّب في قطع رأسهِ فاذا فعلت ذلك ينالك مني الانعام الزايد» . وكان الامر كما ذكر . وخرج محمد آغا دالي باش من امام الباشا وبلغ ذلك علي الظاهر فابتدأ الدالي باش المذكور يكاتب علي الظاهر ويطلب منهُ ان يكون في خدامتـه ولاجل نفود (٥ المقدَّر صدَّق بكلامه . وتقـابلا الاثنان وتصافحا وتعاهـدا على السيف (٦ والمصحف وجعل عسكرهُ لوحده . واتا علي الظاهر اطلق لهُ الامر بانه يروح ويجي امتده كل وقت ان يريد بدون معارضة وكذلـك العساكر تختلط مع بعضها

وفي ذات يوم من الايام الشيخ علي الظـاهر كان راقدًا في خيمتهِ فهجم عليـهِ الدالي باش بفرده وقطع رأسه مع ثلاثة انفار من اصحابهِ . ووضعهُ في خرج وركب حالًا مع عسكرهِ وسار قاصدًا الشام ودخل اليها بعزّ واكرام . وقدَّم الراس الى محمد باشا ففرح على اتمام مرغوبهِ وحالًا لبَّس الدالي باش كِكاً (٧ فاخرًا وانعم عليهِ انعاماً وافرًا . وارسل راس علي الظاهر مع الثلاثة الرؤوس الى القسطنطينية ووضعوهم امام

---

١) لتأخذها (يؤخذ) ٢) اي زعيم ٣) لعلها (وقت طلب الديون)
٤) جمع علوفة بمعنى الراتب والاجرة والنفقة
٥) بمعنى نفوذ وتلك غاية ٦) كذا والصواب (السيف)
٧) اكرك تركية بمعنى الفرو والدالي باش الزعيم

الباب الهمايوني . وصار الى محمد باشا بذلك فخر وشهرة . واما الجزّار كان اعرض واشكى من محمد باشا واوشى عليهِ انهُ قابل عصاة في ارضهِ . وان عصاوة علي الظاهر علينا برأيهِ فلاجل ذلك الزمت الدولة العلية الى محمد باشا يصنع ما ذكرنا . والبعض من رجال الدولة الذين هم من حزب الجزّار ذكروا وقالوا : هذا ليس هو راس علي الظاهر . ولاجل ذلك احضروا ولديهِ الحسن والحسين (١ وقالوا لهم . هل تعرفون هذه الرؤوس المقطوعة . فحين نظروا راس ابيهم بكوا . فقال لهم : الاذا بكيتم ؟ فاجابوهُ : هذا راس والدنا علي الظاهر . ولا عرفوهُ الّا من كبر عارضيهِ . لانهم كانوا يدعونه ابو سبع شنبات . فتحققوا الامر عليهِ وانقضت دولة ظاهر العمر . وتشتت رجالهُ وانقرضت عياله (٢ . وجلس في مدينة عكا من قهر وانكى . وهو الليث الجبّار والوزير القهّار احمد باشا الجزار صاحب المكر والحيل وكانت دولتهُ من اغرب الدول . وهذا المشار اليهِ لهُ قصة عجيبة واخبار غريبة لا بدّ عن سردها في وجه الاختصار وذلك اول ابتداء ظهورهِ (٣

وقد تمت بعون الله تعالى قصة علي الظاهر (٤ بالمختصر على قدر الامكان . والحمد لله الحنّان وسبحان منقذ الخلايق ومحييها . ومميت النفوس ومحييها . ينشي دولًا ويفني دولًا . وهو الحيّ الباقي القيوم لهُ العزّ والمجد على الدوام امين

٢. قصة الشيخ ضاهر

« هو بخط يد خطوط المقولا افندي سمان فرّاج »

وفي سنة ١٧٤٠ قويت في مرية القدس شوكة ظاهر وهو شيخ من مشايخ العرب . وكان في اول الامر يسكن صفد بجانب طبريا . ثم اخذ في الهجوم على البلاد التي تحت حكم عامل صيدا فتملّك عكا وعشر اسوارها وقعد فيها . وكان يزداد

١) وهذا يخالف قول بعض المؤرخين : « ان الجزار والي عكا قتل ولدي علي الظاهر الحسن والحسين سنة ١٧٨٩م (١١٧٥م) فضاق ذرعهُ وجاء جبل الشوف فنزل في نيحا »

٢) بقي للزيادنة بقية كما مرَّ في المقدمة ولكنهُ يريد انقراض المالكين منهم

٣) يظهر ان المؤلف وضع تاريخاً (لاحمد باشا الجزّار) كما يفهم من كلامهِ هذا

٤) يشير الى آخر قصة (ظاهر العمر) التي ختمها بحادثة ولده (علي)

قوةً حتى اطاعتهُ مشايخ الجبل ودخلت تحت حكمه عرب البادية . وكان عادلًا في الرعية وسائرًا معهم سيرة مرضية . وساعدتهُ القبائل التي في اطراف لبنان التي يقال لها المتاولة . ولما بلغ السلطان ذلك خافهُ واراد ان يمكر بهِ فكتب لهُ يقول : ارجع عن الحرب ودع العداوة فقد ابلغتُك مرادك ورضيت ان تكون نائبي في القدس . وولَّيتُك عكا والناصرة وطبريا وصفد وسائر البلاد التي في تلك الاطراف . وانت امير العرب فصدَّق ذلك وكفَّ عن المحاربة سنة ١٧٦٨ . ثم ان السلطان ولَّى على دمشق الشام عثمان باشا (١ وكان شديد المكر وولَّى اولادهُ الاثنين صيدا وطرابلس (٢ فصار عثمان باشا يظلم رعية الشيخ ظاهر ويطلب خراج للسلطان . فلمَّا رأى ذلك ظاهر بدأ في محاربتهِ . فيوم من الايام عصا ولدان من اولاد الشيخ ظاهر على ابيهما فحاربهما وغلبهما فهربا الى قصر محصَّن في نابلس . فحاصرهما ابوهما وهناك بلغهُ ان عثمان باشا طلع عليه فاصطلح هو مع اولادهِ . فالتزم لهُ ابنه البكر بتدبير يخيب بهِ ذلك العدو . فاخذ علي معهُ خمسماية من خيل العرب وخرج فيهم يقصد نحو التركُ وجدَّ في السير حتى دنا منهم قبل طلوع الفجر فوجدهم نائمين في خيامهم وهم في الامان . فصرخ العرب وحملوا عليهم فوثبوا مرعوبين من النوم وقُتل منهم هاربين فانتهبت العرب بغنيمة وافرة واخذوا كلما وجدوا في خيامهم وخابت آمال الاعداء .

فرجع عثمان باشا من دمشق مغلوباً مقهوراً وخلت خزينتهُ من المال لانه انفق ما عندهُ على تجييز العساكر . فصار يلحّ على الاهالي في طلب المال فضجت الناس من ظلمهِ وعصيهُ اهالي الرملة وغزة ويافا وما طوَّعهم الَّا بعد حروب كبيرة . فوقعت البغضة في برية القدس وتمنوا حكم علي باشا (٣ عليهم . وكان هذا قد قوي في ديارهِ فاطاعتهُ قلوب اهل جميع البلاد المصرية وتغلَّب على مكة المشرَّفة وعصى جلالة السلطان . واستقلَّ بامره وقد خدمهُ السعد في ذلك الوقت لان السلطان كان مابيًا بمحاربة الروس . فارسل علي باشا صاحب مصر الى الشيخ ظاهر يعرض عليه عقد المحبة والاجتماع على عدوهما التركُ فتعاهدا على ذلك فدخلت عساكر المماليك برية القدس وتملكوا غزَّة ولدَ

١) يريد عثمان باشا الصادق الذي مرَّ ذكره وسببُ تسميته بالصادق

٢) وهما درويش باشا والي صيدا ومحمد باشا والي طرابلس الشام

٣) هو علي بك الكبير الذي استجار بظاهر العمر سنة ١٧٦٦م وكان من اخصّ اصدقائه وقد ارسل اليه نجدة بقيادة محمد بك ابي الذهب

والرملة . وسمع عثمان باشا بدخولهم اراضيهُ فبادر في عسكره ليمنعهم عن دخولها . وبينما هو على اهبة السفر اذ اقبل عليهِ الشيخ ظاهر فعجز عثمان باشا عن حمي يافا ورجع بسرعة الى الشام فخلت برية القدس من الترك وصارت تحت حكم الشيخ ظاهر

وفي تلك الايام دخل برية الشام عسكر جزيل من المماليك المصرية والمقدم عليهم محمد (١ صهر علي بك فقصدا دمشق الشام واحاطوا بها من كل جانب وساعدهم الشيخ ظاهر بعساكرهِ وعجز عثمان باشا عن مدافعتهم وترك لهم المدينة وقعد مع اصحابهِ في القلعة (٢ وقد اشرف على الهلاك . وعند ذلك بعث عثمان باشا الى قايد المماليك المصرية بالليل صرة ثقيلة بالدنانير يقول لهُ : ارجع عن محاربتي . فتبرطل قايد المماليك وأمر عساكرهُ بترك المحاصرة فانصرفت العساكر عن محاصرة قلعة دمشق وساروا في حال سبيلهم . فلما رأى الشيخ ظاهر خيانتهم هذه وانهم قد فارقوهُ وتركوهُ وحدهُ عجز عن فتح القلعة فرجع الى ديارهِ . فهنأ نفسهُ عثمان بالنجاة فعاد يجهز العساكر . وبعد مدَّة قليلة من الزمان خرج الى محاربة الشيخ ظاهر ودخل اراضيهُ وحاصرهُ في عكَّا . وجدَّ في المحاصرة حتى صعب الحال على الشيخ وكاد عثمان باشا ان يفتح عكا . فما نجا الشيخ في هذه المرَّة الَّا بمساعدة ولديهِ فقد جمعا العرب وهجما على الترك ليلًا فكسروهم وشرَّدوهم فهرب منهم عثمان باشا . ثم جمع الشيخ ظاهر عساكرهُ وحارب الدروز فغلبهم وتملك بلادهم التي تحت حكم الباشا عامل صيدا . ولما بلغ خبر فتوحاتهِ الى السلطان وهو مشغول في الحرب مع روسية صعب عليهِ الحال فارسل السلطان الى الشيخ يعرض عليهِ الصلح وقد عزل عثمان باشا وولديهِ عن ولاية دمشق وصيدا وطرابلس . واما الشيخ ظاهر فقد اضمر في نفسهِ ان يُدخل في طاعتهِ برية الشام كلها وهو مركن في ذلك على مساعدة علي بك صاحب مصر

(١ هو ابن الذهب المذكور آنفًا

(٢ ان قلعة دمشق العظيمة قديمة يرجع عهد بنيانها الى تاج الدولة تُتُش سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨م) الذي جعلها دار امارة وسكنها عوض القصر دار العباسيين والخلفاء دار الامويين وزاد في ابنيتها من جاء بعدهُ مثل شمس الملوك دقاق ونور الدين زنكي وفي زمن العادل اخي صلاح الدين الايوبي جعل لها اثني عشر برجًا وحفر حولها خندقًا وردمها وتغلبت بها الحال الى ان بقيت على ما هي عليهِ الآن . ولقد كتبت فيها مقالة مطولة تناولتُها من مخطوطات كثيرة منها (الشمة المضية في اخبار القلعة الدمشقية) للمؤرخ ابن طولون الصالحي الدمشقي

فبذلك السبب لم يقبل الشيخ ما عرضهُ عليهِ السلطان من شروط المصالحة بل استمر على محاربة الدولة وبعد مدة قليلة عصيت اهل مصر على علي بك . فخاف منهم وهرب الى مصر طالباً النجاة لنفسهِ فأتى الى بلاد الشيخ ظاهر حقيراً ذليلاً فاجارهُ الشيخ وانزلهُ عندهُ واكرمهُ فاقام علي بك في يافا

وسنة ١٧٧٢ قصدت مراكب المسكوب حيفا لتأخذ ماء حاراً . فلما عرف الشيخ ظاهر بقدوم المراكب الى حيفا ارسل الى مقدَّم العسكر المسكوبي في تلك المراكب يسألهُ المساعدة على الترك فاجابوهُ المسكوب الى ذلك . وكان الشيخ ظاهر في تلك الايام طالباً الى مقاتلة الترك واعوانهم الدروز . فالتقى الشيخ بجيش الترك بجانب البحر بين الساحل وبين جبل لبنان فبدوا القتال . وعند ذلك قدمت المراكب المسكوبية فصارت المسكوب تساعد العرب وتضرب المدافع على الترك وتعامل الدور برمي القلل (١ . وكان الترك كثيرون والمقدمين عليهم سبعة باشاوات وبعد مدة قليلة غلب الشيخ ظاهر الترك وهزمهم وكان هذا اول ما رأت العربان العساكر المسكوبية . وبعد تلك النصرة رجع الشيخ ظاهر صحبة رفيقه علي بك الى عكا واذ جاءهُ خبر ان اهالي يافا عصوا عليهِ توجه مع عسكرهِ الى يافا وحاصرها وما زال يحاصرها حتى مضت ثمانية اشهر ففتحها وردَّها الى طاعتهِ . واما علي بيك فلم يطب لهُ العيش بالغربة فتحسَّر على مصر . فقدَّر نفسه (٢ ان يرجع اليها ويحكمها . ولما سمع الشيخ ظاهر اشار عليهِ بالصبر . وقال : «ان العجلة من الشيطان . فاصبر لبينا تحضر مراكب المسكوب فيعاونوك على اعدائك العاصين عليك» . فلم يقبل علي مشورة الشيخ بل قفل راجعاً طالباً مصر . وبينما هو في البرية طلعت عليهِ جماعة من المماليك العاصين وقتلوهُ

وفي ذلك الزمان اتى الى بيروت جزَّار باشا قد ولَّاهُ السلطان ولاية بيروت وجبل الدروز (٣ وكان ظالماً فضجَّت الدروز من ظلمهِ وحكمهِ . فقاموا عليهِ واجتمعوا بالشيخ ظاهر فخرج هذا بعسكرهِ صحبة الدروز لمحاربة جزَّار باشا . وفي تلك الايام

---

١) يريد الكلل فكتبها بالقاف وهي القذائف والكرات جمع (كلة)

٢) لعلها (فقدَّر لنفسهِ) اي فسوَّل لنفسهِ

٣) يطلق على جبل الشوف غالباً اسم جبل الدروز لكثرتهم فيهِ ولاسيما جبل المتن

قربت مراكب المكوب من بيروت فحاصرها الشيخ ظاهر من جانب البرّ وحاصرها المكوب من جانب البحر فبعد مدة قليلة من الايام عجز جزار باشا عن دفعه ففتحت بيروت للشيخ ظاهر وأخذ جزار باشا ومن معهُ أسرى . وبعد ذلك عاد السلطان فولّى عثمان باشا برية الشام . فخرج الشيخ ظاهر الى محاربة الباشا عثمان وغلبهُ وهزمهُ . ثم رجع ظاهر منصوراً الى بلدهِ وكان للشيخ ظاهر خزندار (١ يقال لهُ ابرهيم (٢ وكان رجلاً ظالماً يطمع في اموال الرعية فرغبت الناس عنهُ . وصار ظالم ابرهيم سبباً في العصيان . فتأمل الشيخ ظاهر احوالهُ فرآها قد حالت وصعبت عليهِ وما بقي لهُ احد يساعدهُ بعد قتل علي بيك . وما بقت (٣ المراكب المكوبية تعود الى طرفهِ . فاشتدّ الترك عليهِ . فعزم الشيخ ظاهر ان يطيع السلطان قبل ان تغلبهُ الترك وتهلكهُ . فارسل رسولاً الى جلالة السلطان يظهر لهُ طاعتهُ ويسلّم لهُ صيدا

واما اولاد الشيخ فلما سمعوا ان اباهم قد قدّر ان يطيع الدولة اغتاظوا لانهم كانوا يؤملون ان يصيروا امراء برّ الشام بعد ابيهم . فصعب عليهم عمل ابيهم فغضبوا عليهِ وانصرفوا الى العربان . ومنهم من اقام في جبل الخليل . ومنهم من سكن نابلس

وفي تلك الايام قام محمد بيك الذي صار قائداً للمالك في مصر بعد قتلهم علي بيك خرج لمحاربة الشيخ ظاهر ودخل برية الشام وتغلب على غزة ويافا وعكّة . فخاف منهُ الشيخ ظاهر وهرب الى جبل نابلس وكادت دولتهُ ان تزول في تلك الايام وما خلّصه من تلك المصيبة الّا موت محمد بيك لانهُ مات في ذلك السفر . فقوي قلب الشيخ وثبتت نفسه فعاد تملّك عكا . وبينما هو على ذلك اذا بمراكب الترك قد بانت في البحر فتحيّر الشيخ ظاهر وقال لاصحابهِ : يا ترى ما السبب في قدوم المراكب التركية فاننا على صلح معهم . ودعا اكابر عسكرهِ وشاورهم وقال : هل ينبغي ان نقاتل الترك ونمنعهم من النزول على البرّ . فاصطفت عساكر الشيخ ورأوا الترك نازلين من مراكبهم قاصدين البرّ واذا بتقدّم من مقدمين الشيخ ظاهر صاح على عساكرهِ ونهاهم عن معارضة الترك . فطلعت الترك الى البرّ بلا حرب . فلما رأى الشيخ ظاهر

---

١) الخزندار فارسية بمعنى (الخازن)

٢) يريد ابرهيم الصباغ الذي سبق ذكر اخباره ٣) اي بقيت

خيانة عسكره وأنهُ لا يقدر على عدوّه طلب الهرب ليفوز بنفسهِ فقتلهُ رجل كان تحت يده . فزالت بذلك دولة الشيخ ظاهر في برية الشام ومصر . وذلك سنة ١٧٧٦ على ايام السلطان عبد الحميد بعد ما كان الشيخ ظاهر يحكم على البلاد مدة اربعين سنة فقلّد السلطان جزار باشا ولاية عكا وصيدا

« انتهت الرسالتان »

بيروت

اخبارها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تتمّة)

بيروت في القسم الاخير من القرن العشرين الى يومنا (١٨٦٠—١٩٢٦)

الباب الثالث : بيروت الادبيّة (تتمّة)

وفي ختام هذا الباب يسرُّنا ان نذكر انشاء اوّل مكتبة عموميّة في بيروت . كان الساعي الى تحقيق هذا الامر الخطير جناب الفيكنت فيليب دي طرّازي بعد الحرب الكونيّة بمساعدة رجال الانتداب الفرنساوي لاسيما الجنرالَيْن الكبيرين غورو وثيفنان . وقد تكلّف جناب منشئ العمل عناء ومشاقّ كبيرة ليخرج فكرهُ الى حيز الوجود وتجشّم الاسفار الى فرنسة فاستوهب كثيرًا من مصنفات علمائها فزان بها هذا المعهد الجديد وقد اصبح البيروتيّون مَدينين لعنايته في هذا المشروع الجزيل الفائدة

على انَّ بيروت لم تخلُ بعد السنة ١٨٦٠ من مكاتب اخرى خصوصية كان العلماء يمكنهم استرخاص اصحابها لمطالعة كنوزها الادبيّة نزيد خصوصاً مكتبة الكليتين الاميركيّة واليسوعيّة فالاميركيّة احتوت نحو ٢٠٫٠٠٠ مجلّد كان يغلب عليها الكتب